الورقة الأولى

طبيعة المعركة السياسية، وآثارها على مسار الحرب

صبري سميرة*

من أجل المنهجية في البحث والتحليل والعرض، لا بد أن نثبت ابتداء أن أشكال العدوان الشامل كافة على قطاع غزة إنما هي معارك أخرى تضاف إلى قائمة طويلة قديمة من المعارك التي شنها الاحتلال الصهيوني والإسرائيلي ضمن حربه المستمرة الشاملة على الشعب الفلسطيني والعربي، ومن خلال هذه الحرب التي بدأها الصهاينة منذ قرابة القرن من الزمان– وتابعهم فيها الإسرائيليون– مدعومين من الأغلبية العظمى ليهود العالم وأمريكا والدول الأوروبية وبخاصة الغربية، أراد المحتلون إقامة دولة إسرائيل والحفاظ عليها– على كامل أرض فلسطين وتهويدها وتفريغها من شعبها وتشريدهم–، بل وتوسعة نفوذها في الإقليم بالأشكال المتاحة، ومن أجل أن يكسبوا هذه الحرب المصيرية على الشعب الفلسطيني والعربي، قام الصهاينة والإسرائيليون بشن المعارك الكثيرة المتنوعة للتخلص من أو السيطرة على أو إضعاف أية جماعة أو مجتمع فلسطيني أو دولة عربية أو إسلامية أو تحالف إقليمي أو دولي يقف أمام تحقيق مخططاتهم العدوانية التوسعية، ومن هنا جاء عدوانهم الشامل على قطاع غزة للقضاء على صمود ومقاومة الغزيين وحركة حماس وفصائل المقاومة الأخرى.

أشكال العدوان الشامل على قطاع غزة

إن العدوان الحالي الشامل على قطاع غزة، الذي وصل ذروته بالعدوان العسكري على الأبرياء المدنيين والبنى التحتية كافة، والمرافق الخدمية للمجتمع الفلسطيني هناك، وقد بدأت فصول مرحلته بعد فوز حركة حماس بالأغلبية الكبيرة بصورة ديمقراطية ونزيهة بالانتخابات التشريعية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة في كانون ثاني/

* د. صبري سميرة: أستاذ علوم سياسية، وباحث ومحلل سياسي– الأردن.

يناير عام ٢٠٠٦، وتصاعد العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة بعد سيطرة حركة حماس عليه في حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٧، وقد أخذ هذا العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة أشكالا كثيرة من المعارك والاقتصادية والسياسية والإعلامية والأمنية واالعسكرية، ونشر الفتنة والتآمرية الداخلية الفلسطينية والعربية، وبناء المحاور والتحالفات الإقليمية والدولية– بما فيها ما فرضته إسرائيل على قطاع غزة من حصار خانق دولي و"عربي وفلسطيني" شبه شامل قبل العدوان العسكري.

الأسباب العسكرية للعدوان الإسرائيلي

سعت إسرائيل مدعومة بمواقف أمريكا والغرب إلى خنق حركة حماس وتثوير الغزيين ضدها لإسقاطها أو تسهيل تلك المهمة أمامهم، ولكن مع نجاح حركة حماس في قيادة القطاع وخدمة سكانه مدعومة بمحور الممانعة والحركة الإسلامية العالمية، ومع ثباتها على برنامجها السياسي القائم على الصمود والمقاومة، وعدم تقديم التنازلات لإسرائيل، وعدم التبعية للسياسات الأمريكية، فقد تعاظمت شعبية حركة حماس لدى الغزيين والفلسطينيين عموماً والعرب والمسلمين، حيث أصبح صمود حماس في هذه الحالة أصبح عائقا أمام الإستراتيجيات الإسرائيلية والأمريكية الساعية للهيمنة على المنطقة، وتدمير محور الممانعة، وفرض التسويات غير العادلة للقضية الفلسطينية.

وبعد أن لم ينجح إسقاط حماس أمنيا وسياسيا، ومن ثم اقتصاديا وجماهيريا، فقد لجأت إسرائيل إلى العدوان العسكري.

الأسباب السياسية للعدوان الإسرائيلي

ما دامت حركة حماس وفصائل المقاومة والفلسطينيون والعرب بعامة- لا يشكلون خطرا عسكريا حقيقيا مباشراً آنيا على إسرائيل ولا يلوحون بذلك، وما دامت حركة حماس لم ترفض تهدئة حقيقية مع إسرائيل، فلماذا أقدمت إسرائيل على العدوان العسكري ضد قطاع غزة؟ ولماذا كان هذا التوقيت بالذات؟ وبشكل عام فإنه يمكن التأكيد بأن دوافع العدوان الإسرائيلي العسكري الشامل على قطاع غزة ونتائجه هي سياسية بالأساس بهدف الحفاظ على تفوق عسكري أمني وهيمنة إسرائيلية على فلسطين

والمنطقة بما لا يسمح بوجود بدايات لتشكيل أي تهديد لإسرائيل، ويمنع قيام أي كيان فلسطيني حقيقي على أية بقعة بسيادة كاملة.

وقد اختارت الحكومة الإسرائيلية بقيادة حزبي كاديما والعمل (أولمرت، ليفني، باراك) أن تشن عدوانها العسكري على قطاع غزة في أواخر شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٨ لأسباب ترتبط بالانتخابات الإسرائيلية، ومطامح حزبية وشخصية لقيادات إسرائيلية متعلقة بذلك، ومرتبطة بالفترة الانتقالية للحكم في أمريكا، وبالانقسامات الفلسطينية والعربية، وبتداعيات الأزمة المالية العالمية، ويمكن تلخيص هذه الظروف السياسية المحيطة بالعدوان العسكري على قطاع غزة بالآتي:

١. مصالح القيادات الإسرائيلية لتحقيق مجد شخصي، وتأكيد قدراتهم على حماية أمن إسرائيل.

٢. مثّلت الفترة الانتقالية للحكم في أمريكا فرصة مثالية لإسرائيل لتنفيذ عدوانها العسكري، حيث تحصل على الدعم المطلق من أمريكا دون أن يدفع جورج بوش وحزبه أي ثمن لذلك خارجيا أو داخليا، وفي الوقت نفسه، تجنبت إسرائيل أية ضغوطات كان من الممكن أن تأتيها من الرئيس باراك أوباما بعد أستلامه للحكم.

٣. لعب الانقسام والصراع الفلسطيني الداخلي بين حركة فتح وحركة حماس دورا كبيرا في تشجيع إسرائيل على عدوانها العسكري على قطاع غزة.

٤. الانقسام العربي بين معسكري- الممانعة والاعتدال-، وأثارة موضوع ايران ومواجهة النفوذ الإيراني، وانشغال الدول العربية بمشاكلها الداخلية.

٥. الاستفادة من أنشغال العالم بالأزمة المالية الدولية.

مبررات العدوان الإسرائيلي

مهدت إسرائيل لعدوانها على قطاع غزة بالكثير من الجهود السياسية التحالفية والإعلامية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وإدراكا منها للحساسيات السياسية الداخلية والإقليمية والعالمية، لم تحدد إسرائيل أهدافا دقيقة وواضحة تحاسب عليها في عدوانها على قطاع غزة وتركت الواقع الميداني يفرض نفسه، لتقوم بصياغة أهدافها

بمرونة وفق ما يمليه، ومن بين مبررات التي واجهتها:

١. أن إسرائيل تبحث عن أمنها أولاً قبل الولوج في الحلول السياسية.
٢. إقامة ترتيبات عسكرية وأمنية جديدة على حدود قطاع غزة، تضمن وقف إطلاق الصواريخ من القطاع باتجاه الجانب الإسرائيلي، وتدمير الأنفاق ووقف التهريب عبر الحدود مع مصر.
٣. تدمير البنية التحتية العسكرية ومصادر الإمداد العسكري لحركة حماس وفصائل المقاومة.
٤. تحقيق انتصار عسكري يعوض الوضع النفسي المتردي للجيش والحكومة في الكيان الإسرائيلي بعد حرب ٢٠٠٦
٥. هزيمة حماس وإضعافها لأضعاف محور الممانعة، وانشاء حكومتها في القطاع.
٦. تأكيد قدرة الدروع الإسرائيلية في الشرق الأوسط.

وبالنظر إلى مجريات العدوان العسكري على قطاع غزة وما رافقه من معارك سياسية وإعلامية ودبلوماسية وشعبية وغيرها، فقد فشلت إسرائيل فشلت في تحقيق أهدافها وتكبدت خسائر إضافية، حيث لم تستطع القضاء على المقاومة وحركة حماس، بل و زادت من قوتها وشعبيتها السياسية والجماهيرية والدولية، كما إن أستمرار تهديد مستوطنات جنوب الكيان الإسرائيلية بالصورايخ الفلسطينية ولم يتحقق الشعور بالأمن الكامل، وأما عدد القتلى من الجنود والجرحى– وإن تم التكتم الشديد عليه– واستخدام عبوات ناسفة وصواريخ بعيدة المدى زاد من حالة الهلع والخوف في المستوطنات الإسرائيلية ولدى الجنود الإسرائيليين.

كما أن إن وحشية العدوان وحجم الدمار وأعداد القتلى الناتجة عن الحرب ودعم الشعب الإسرائيلي بقواه كافة للعدوان، عززت الاتجاه الشعبي الصراعي في الجانب العربي والإسلامي والعالمي ضد إسرائيل، كما أن فشل إسرائيل في تحقيق أهدافها عسكريا ودخول أوروبا وأمريكا لمساعدتها، يزيد من قدرة هذه الأطراف بالضغط على

إسرائيل ومواقفها المتطرفة، ولا يجعلها مستقبلا طليقة اليدين في شن العدوان على من تشاء وقتما تشاء، كذلك، لم تستطع إسرائيل عزل حركة حماس على المستوى الرسمي العربي والإسلامي والدولي، حيث تسبب صمودها وأفشالها للعدوان الإسرايلي بزيادة أخذها الاعتبار في الحسابات الاقليمية والدولية كقوة صاعدة هزمت الجيش الإسرائيلي كما تقوي محور الممانعة وايران وتركيا وسوريا ودول أخرى رأت علاقة حسنة بحماس وبعضها يناهض السياسات الأمريكية.

موقف حركة حماس من العدوان الإسرائيلي

تسعى استراتيجية حماس العامة إلى زيادة قوتها ونفوذها الشامل داخل فلسطين وخارجها، ولاسيما زيادة قوتها العسكرية الميدانية داخل فلسطين وتعزيز قدرتها على الصمود والمقاومة، بحيث تستطيع التأسيس لقيام دولة فلسطينية حقيقية تتمتع بسيادة كاملة على الأرض الفلسطينية.

وقد طورت حماس من عملها وتقدمت في المراحل إلى أن وصلت إلى السيطرة الكاملة على قطاع غزة، وبعد أن تصدت لكل محاولات إسقاطها، وبعد أن جربت تهدئة لم تلتزم بها إسرائيل، اتخذت حماس قرارا بعدم التوقيع على أي تهدئة لا تحقق لها هدفين تحتاجهما لاستراتيجيتها، وهما فتح المعابر إلى قطاع غزة بصورة طبيعية، وفك الحصار بصورة كاملة، وجاء العدوان العسكري الإسرائيلي، وأصبح لدى حماس أهداف جديدة لتحقيقها، وأهمها الصمود الشامل والعسكري، والمقاومة العسكرية، والسيطرة الميدانية الأمنية والشعبية، ووقف العدوان العسكري، والانسحاب الإسرائيلي الكامل من قطاع غزة، ولتحقيق ذلك كله، كان على حركة حماس أن تعمل على جبهات داخلية وعربية وإقليمية ودولية كثيرة، رسمية وشعبية ومؤسسات دولية، سياسية ودبلوماسية وإعلامية، إضافة إلى العسكرية والاستخبارية.

وقد نجحت حركة حماس في تحقيق هدفين من أهدافها الأربعة التي أعلنتها خلال معركة غزة، وهما: وقف إطلاق النار، والانسحاب من قطاع غزه، ولم تحقق حتى الآن- وإن كانت قد قاربت- الهدفين الآخرين المعلنين وهما: فتح المعابر بصورة طبيعية، وفك

الحصار بصورة كاملة، وبتحليل الأرباح والخسائر فإن حماس نجحت في الصمود والمقاومة على الجبهات كافة، وأثبتت أنها كانت مُستعدة للتصدي للعدوان في المجالات الممكنة.

فعسكريا، انتشر وتخندق مُقاومو حماس وفق خطة مدروسة، واستخدموا أسلحتهم القليلة والبسيطة بصورة مُنظمة وذكية، ووصلت صواريخهم مدى أوسع مما توقعه الإسرائيليون، ويتوقع الإسرائيليون أن حماس لم تستخدم كل أنواع الأسلحة التي لديها، وأوقع المقاومون خسائر مادية وبشرية في جنود الاحتلال وآلياتهم، تكتمت إسرائيل على مُعظمها، ولكن الشهادات المتوالية للجنود تثبت أنهم كانوا يواجهون مُقاومة شرسة لم يتمكنوا من تجاوزها أو هزيمتها، وإنما كانوا كثيرا ما يتراجعون بعد أن يدخلوا مناطق المباني السكنية حتى تصبح المعارك مواجهة ويُمكن للمقاومة أن تواجهها.

وعلى الرغم من فظاعة المفاجأة ووحشيتها، والعدوان الشرس المستمر لمختلف وحدات الجيش الإسرائيلي، فقد نجحت حماس في الصمود العسكري والتصدي للقوات الإسرائيلية، ولم يسقط الكثير من المقاومين، واستمروا في التمتع بإمكانيات إطلاق الصواريخ ومدافع الهاون حتى النهاية، وهي أهداف كان يسعى الإسرائيليون لتحقيقها، وأثبتت المقاومة أنها على درجة عالية من التدريب والتحضير والمعنويات العالية والتماسك والتواصل وحُسن الإستراتيجية، وأنها هي التي بقيت مسيطرة على المناطق غير المفتوحة لصواريخ الطائرات الإسرائيلية، حيث إن مجرد صمود حماس العسكري يُعتبر نجاحاً هو الأهم والأخطر في إفشال العدوان الإسرائيلي.

وحتى على مستوى التهريب عبر الأنفاق فلم تستطع إسرائيل وقف تزويد حماس بالسلاح والعتاد والمؤن طوال المعركة، حيث استمر استخدام الأنفاق حتى أثناء المعارك.

أما على المستوى الأمني، فقد نجحت حماس نجاحا كبيرا، حيث تمكنت من حماية قياداتها وعناصرها ومخازن أسلحتها ومنصات صواريخها لدرجة كبيرة جدا، ولم يسقط في الأسر أحد من المقاومين، وسقط قياديان شهيدان، هما نزار ريان ووزير الداخلية سعيد صيام، وتحقق هذا النجاح الأمني لحماس رغم وجود شبكة قوية من العملاء لدى إسرائيل وبعض المرتبطين معها من أجهزة السلطة السابقة.

وأما على المستوى الإعلامي، وعلى الرغم من الإعداد الإسرائيلي المسبق الكبير للسيطرة على الحرب الإعلامية، فقد نجحت حماس في إفشال إسرائيل إعلامياً، بل وتفوقت عليها في كثير من الأحيان، فطوال المعركة استمرت وسائل إعلام حماس بالعمل والتغطية الميدانية، وتمكنت قياداتها العسكرية والسياسية من إيصال رسائل مستمرة للمقاومة وللشعب الفلسطيني وللعالم أجمع، وتمكنت من تقديم خطاب ومضامين إعلامية مُناسبة، وقد لعبت وسائل الإعلام العربية والعالمية، وبخاصة الفضائيات والإنترنت في نجاح حماس الإعلامي، وقد ضربت إسرائيل بعضا من مقرات هذه الوسائل الإعلامية.

أما على مستوى الحرب النفسية، فلم تترك إسرائيل أسلوباً إلا واستخدمته لإضعاف معنويات المقاومين والشعب الفلسطيني والشعوب العربية والإسلامية الداعمة للمقاومة، فاستخدمت المناشير، والبث التلفزيوني والإذاعي وفريق "بروباغاندا" (حرب إعلامية) متخصص، ولم تنجح إسرائيل في ذلك عبر ما نشرته من انتصارها وانسحاق المقاومة وتدمير مقراتهم وقواعدهم ومنصات صواريخهم وقتل وأسر الكثيرين منهم، ولم تنجح في تأليب أهالي غزه ضد المقاومين، حيث ثبت كذب وتضليل هذا الإعلام عمليا بعد انجلاء المعركة، والأهم أن وحشية الصدمة ووحشية العدوان لم توهن معنويات أهالي غزه والمقاومين، ولم يستسلم أحدٌ منهم، ولم يعترض أحدٌ على المقاومة، بل استبسل الجميع بالصمود والمقاومة، وكان للدعم الشعبي العربي والإسلامي والعالمي أكبر الأثر على معنويات القيادات السياسية والعسكرية لحماس.

فعلى المستوى الشعبي، فلسطينيا في الضفة الغربية وفي داخل الخط الأخضر وفي المخيمات والشتات فقد تعاظمت شعبية حماس إلى أقصى درجاتها، وهب الفلسطينيون في العالم يعلنون تأييدهم المعنوي والسياسي والإنساني والإغاثي، وارتفع لديهم منسوب الهوية والوطنية الفلسطينية من جديد، وزادت آمالهم وتوقعاتهم في أن تحيا قضيتهم وأن تتولاها الأجيال القادمة المتحمسة المؤمنة بحتمية إنهاء الاحتلال الإسرائيلي والتصدي لغطرسته وعدوانه.

ولم تكن هبة العرب والمسلمين في العالم بأقل عاطفة ووعيا، وقد كان للحركة الإسلامية- وبخاصة الإخوان المسلمين- الدور الأكبر في تجييش الشعوب والمؤسسات والرأي العام لنصرة حماس والمقاومة، وأما شعوب العالم الغربي والآسيوي والأفريقي والأمريكي اللاتيني فقد شهدت بدورها بعض صحوات الضمير الإنساني، والتعبير السياسي المناهض لإسرائيل وداعمتها أمريكا.

إن معركة غزه بما فيها من عدوان إسرائيلي وحشي وصمود بطولي للغزيين والمقاومة وحماس أنتجت جميعها أضخم وأوعى تعاطف شعبي عالمي سيترك آثارا على عقول ونفوس ومواقف الأجيال القادمة في نصرتها لقضية فلسطين، وهذا نجاح آخر لحماس عالميا.

في المقابل فإن حركة حماس كانت تتابع وتحلل حسابات الأرباح والخسائر، حيث إن الجانب الفلسطيني في قطاع غزة الذي تمثله وتقوده حماس قد تكبد خسائر بشرية ومادية واقتصادية، جراء العدوان الهمجي الإسرائيلي، فأعداد الشهداء وصلت قرابة (١٤٠٠) شهيد، والجرحى عدة آلاف جريح، كثير منهم قد ينتهي بهم المقام بإعاقات دائمة أو جزئية، وأما البيوت فقد دمر منها قرابة (٤,٠٠٠) بيت تدميرا كاملا، و(١٦,٠٠٠) بيت تدميرا جزئيا، إضافة إلى آلاف المتاجر والمصانع والشركات والمباني الحكومية والعامة والتجارية، ومساحات شاسعة من الدمار في الشوارع والأراضي الزراعية والشواطئ والبُنى التحتية الأخرى: كهرباء، ماء، مجاري... الخ، ويُقدر حجم الدمار المباشر بحوالي مليار دولار، وأما الخسائر الاقتصادية الناتجة عن تعطيل دورة الحياة والإنتاج فلا بد أن تتجاوز ذلك الرقم.

إن هذه الكلف البشرية والمادية والاقتصادية تُشكل خسائر كبيرة ضاغطة على قرارات حماس الخاصة بالمقاومة والصمود أو الملاحقة العسكرية لإسرائيل، بما فيها إطلاق الصواريخ، وهي- وإن كان الفلسطينيون يعلنون استعدادهم للتضحية والمقاومة المستمرة- إلا أنها عُنصر كبير وضاغط على سياسات حماس ومواقفها.

كذلك فإن حركة حماس واجهت واقعا قاسيا على المستوى السياسي الدولي والأممي، فلم تستطع حماس كسر المقاطعة الدولية المفروضة عليها في تلك المستويات بصورة تتناغم وحجم التعاطف ضد عدوانية الحرب على غزة، وحجم الصمود البطولي في وجه ذلك العدوان، حيث حافظت إسرائيل- مع تسهيل مهمتها من قبل أطراف عربية يقوده محور الاعتدال- حافظت إسرائيل على موقف دولي، وبخاصة أمريكيا أوروبيا أمميا، مضاد لحركة حماس، حيث أصر هؤلاء على دعمهم لإسرائيل وأمنها وحقها في الوجود وحقها في الدفاع عن نفسها، وتعهدوا بمساعدتها لوقف ما يسمونه تسريب سلاح حماس عبر اتفاقية أمريكية مدعومة أوروبيا وبشجب أممي لصورايخ المقاومة، ولم تصل حركة حماس حتى الآن في أن تكون جزءا من أي اتفاق مباشر لتهدئة أو هدنة مع إسرائيل، بل تمت محاولة ذلك عبر مصر.

وأمام المعطيات السابقة كافة، الإيجابية والسلبية والضاغطة، استطاعت حركة حماس أن تتعامل معها وأن توظفها، وهي المهمة الأهم والأخطر في تعزيز النجاح العسكري الميداني والبناء عليه ، وقد نجحت حماس في هذا البعد السياسي داخلياً وخارجياً وعربياً وإسلامياً وشعبياً، وقد عاظم انتصار الصمود والمقاومة في معركة غزة من شرعية وسلطة حماس السياسية وامتداداتها في المنطقة والعالم، فابتداءً عززت حماس من دورها كحكومة فاعلة ومسئولة، حيث استمرت في أداء ما يُمكنها من مهمات ومُتابعة عسكرية وأمنية وسياسية وإعلامية وصحية وإغاثية ورقابية وعلى الحدود، ونتيجة لسيطرتها الميدانية وحُسن معالجتها للأمور وثقة الناس فيها استطاعت حماس وحكومتها من تحقيق الأمن المجتمعي والتكامل الاجتماعي بأعلى صورة، فلم تسجل أي حالة للخروج على الأحكام والقانون أو الانفلات والتمرد، وفي الأوقات التي كان يتحرك الناس فيها أو عند وقف إطلاق النار كان الجميع يلتزم بقرارات حكومة حماس وسياساتها.

وعلى مستوى إدارة الصراع السياسي والعلاقات السياسية والمفاوضات فقد نجحت حماس في استيعاب جوانب المعركة، وكانت ناضجة في تعاملها معها، ومع الفصائل الفلسطينية، والأطراف العربية والإسلامية والدولية، فلم ترضخ لضغوطات سلطة أبو

مازن وأطراف عربية أخرى حمّلتها في البداية مسؤولية العدوان الإسرائيلي، وتركتها لتواجه مصير ما اقترفته يداها، ولم ترضخ حماس لمطالب هؤلاء ولمطالب إسرائيل، بل أعلنت مواقفها بقوة، وهيجت الشوارع العربية والإسلامية والعالمية، فكان أن تراجعوا وغيروا- على درجات- من مواقفهم ومطالبهم، واستفادت حماس من الدعم السياسي لمجموعة أخرى من الدول- سوريا، إيران، تركيا، قطر- ونجحت في أن تُشكل منهم مجموعة مُتقاربة داعمة لها، وتمثلت أحسن حالاتها في مؤتمر الدوحة، الذي حضرته بعض فصائل المقاومة بقيادة حماس.

وكانت حماس على درجة عالية من الوعي والمسؤولية وإدراك المصلحة العليا، فرغم عدم رضاها عن دور مصر في المعركة غير أنها استمرت في التعامل مع المبادرة المصرية لوقف إطلاق النار في قطاع غزة، ولكنها لم تتنازل عن شروطها تحت كل الضغوط، مما أجبر إسرائيل على الهروب من شروط حماس وإعلان وقف إطلاق النار من طرف واحد، وتوقيع اتفاقية مع أمريكا لمراقبة تهريب سلاح حماس، وهذا يُعتبر نجاحاً لحماس، فهي لم توقع اتفاقيات هزيمة، ولم تستسلم للضغوط، وكانت هذه الصفقة الإسرائيلية لمصر بمثابة دعم لرؤية حماس بألا تثق مصر بإسرائيل وألا تقف معها ضد حماس.

وفي المجمل فإن نتائج معركة غزه السياسية تمثلت بدفع حركة حماس قدما في إستراتيجيتها المتبناة، وزادت في تثبيت شرعية حركة حماس على الأرض في غزة، وفي قيادة المقاومة وفصائلها، وفي إنجاح أسلوب المقاومة في التصدي للاحتلال والهيمنة الإسرائيلية، وفي زيادة شعبية حماس، وفي إضعاف السلطة في الضفة الغربية، ورفض نهجها في التسوية والتنازلات، ورسخت وجود حركة حماس كقوة لا يُمكن القضاء عليها ولا يُمكن معالجة القضية الفلسطينية بدونها، وجعلت منها لاعباً إقليمياً عربياً وإسلامياً، وجعلتها رمزاً للصمود والمقاومة في العالم أجمع، ورفعت من سقف المطالب الفلسطينية، وأرسلت هزة كبيرة في النظام السياسي العربي لمراجعة حساباته تجاه عملية التسوية، وتجاه نُصرة القضية، وتجاه الضغط على إسرائيل لوقف عدوانها.

موقف السلطة الفلسطينية وحركة فتح من العدوان الإسرائيلي

سارعت السلطة الفلسطينية في رام الله في الأيام الأولى من المعركة إلى تحميل حماس مسؤولية العدوان الإسرائيلي، وأنها جلبته لنفسها وللفلسطينيين، والاستهزاء بالصواريخ العبثية، ولكن- ومع صمود الغزيين والمقاومة وحماس- اضطربت مواقف ودور السلطة، ثم بدأت بعض الأصوات تحاول إنقاذ موقفها، فأظهرت تعاطفا، وطالبت بوقف العدوان، ثم تطورت إلى أن دعت للحوار والوحدة... إلخ.

وأما في الضفة الغربية، فقد منعت السلطة أي مظاهر فعلية لمقاومة الاحتلال أو الاقتراب من حواجزه، وقمعت المظاهرات، وأنزلت رايات حماس، وأما المعتقلون السياسيون في سجونها، فلم تُطلقهم، بل زادت من أعدادهم.

وعلى المستوى الإعلامي، فقد هاجمت السلطة حماس مُباشرة، ثم استخدمت أساليب غير مُباشرة لانتقاد حماس، مثل سرقة المساعدات الإنسانية، ومنع دخول المساعدات، والتعنت في التجاوب مع المبادرة المصرية، وغير ذلك، وأما على المستوى الأمني، فاستمرت السلطة بالانفتاح والتعاون مع إسرائيل.

وأما على المستوى السياسي- وهو الأخطر- فقد تناغمت السلطة تماما مع المطالب الأمريكية والمصرية، ولم تأخذ مواقف سياسية قوية ضاغطة، فلم تُعلن وقف العلاقات مع إسرائيل، ولا وقف العمل بأي اتفاقيات، ولا حرضت الشارع في الضفة والخارج، ولم يذهب أبو مازن إلى غزة- لو على الحدود المصرية- ولم يعتصم في هيئة الأمم، وأفشل أي انعقاد لقمة عربية خاصة بغزة، بل غاب عن قمة الدوحة، وانشغلت السلطة فيما بعد بقضايا غنائم المساعدات الإغاثية، والسيادة على المعابر، ومن يوقع اتفاقات لإنهاء العدوان، ومن يشرف على إعادة الإعمار.

إن تحليل النجاح والفشل والأرباح والخسائر للسلطة في ضوء العدوان على غزة يُظهر أن هذه السلطة خسرت الكثير على المدى القريب والبعيد؛ فأمام مسؤولياتها كقيادة للشعب الفلسطيني، فقد فشلت في أبسط واجباتها في الدفاع العسكري والأمني والميداني عن مواطنيها، بل فشلت في إسناد المقاومة التي تدافع عن كينونة الشعب الفلسطيني

ومستقبل قضيته، بل تصرفت كخصم وخاذل للمقاومة، وتطاول بعض رموزها على تضحيات الشعب الفلسطيني ومقاومته الباسلة، بل ظهرت السلطة كمعاون إعلامي واستخباري لإسرائيل وأمريكا، ومع ظهور قضية المساعدات الدولية، ظهرت السلطة كتاجر يبحث عن مصالح المنتفعين في قيادتها، كل هذه الجوانب جعلت الشعب الفلسطيني في أماكن كثيرة من العالم يُشارك العرب والمسلمين في إدانة هذه القيادة الفلسطينية، وهي أول مرة في تاريخ القضية الفلسطينية التي تدان فيها قيادة فلسطينية في مناسبات دعم القضية ذاتها.

إن الأداء الهزيل للسلطة ميدانيا وإعلاميا وقياديا وسياسيا وإقليميا ودوليا، جعلها تخسر الكثير من شرعية وجودها وقيادتها، لصالح مشروعية المقاومة والصمود والممانعة، مما سيضعف على المدى البعيد دور السلطة في أي تسويات للقضية مستقبليا، ويزيد من أهمية دور حماس وقوى المقاومة، حيث حصرت السلطة نفسها في نطاق المفاوضات والتسوية.

الموقف العربي من العدوان الإسرائيلي

أظهر العدوان العسكري على قطاع غزة المستوى الكبير من الهشاشة والتخبط واضطراب الأولويات لدى الجسم العربي الجمعي والدول العربية منفردة، وقد أدت حالة التمحور والانكفاء نحو الداخل الوطني والتخفف من العبء القومي العربي، إلى تسهيل التدخل والتحكم والفاعلية الخارجية في تقرير كيفية التعامل مع العدوان العسكري الإسرائيلي على قطاع غزة، وكان أبرز علامات الحال السيئ هذا هو عدم إمكانية عقد مؤتمر قمة واحد خاص بقطاع غزة، بينما تكاثرت القمم الانقسامية في الدوحة والكويت والرياض وشرم الشيخ وأبو ظبي، وأظهرت الأحداث عدم قدرة الطرف العربي على الضغط على المجتمع الدولي، فلم يكن للعرب الرسميين دور في صمود غزة أمام الهجمة العدوانية عليها ولم يكن لديهم دور في صدور قرار مجلس الأمن أو حتى قرار وقف إطلاق النار أو حتى القمة الأوروبية، وقمة شرم الشيخ التي جاءت لإعطاء مخرج للوضع الإسرائيلي ولإعطاء إسرائيل تغطية لانسحابها من قطاع غزة وتبريراً لمجازرها.

هكذا وطوال فترة العدوان على قطاع غـزة اسـتمر الانقسـام العربـي بـين معسـكر التسوية والاعتدال ومعسكر المقاومة والممانعة، وبالرغم من التفاهمات الـتي حصـلت في مؤتمر الكويت فقد عادت الاتهامات المتبادلة، وعجز المؤتمر عن اتخاذ قرارات حاسمة من مجال الصراع، مما يعكس استمرار المواقف الحقيقية للأطراف العربيـة بـالرغم مـن إظهـار روح التعاون، وهكذا استمر محور الممانعة– مدعوما بالتأييـد الجمـاهيري والنخبـوي– في دعم حركة حماس ماديا ومعنويا وسياسيا ودوليا، أما محور الاعتدال فقد اسـتمر في دعـم السلطة، وحدد دوره المستقبلي في دفع المساعدات للإعمار عن طريق هذه السلطة، وتصر دول محور الاعتدال على ضرورة قبول وتفاهم حركة حمـاس مـع السـلطة ليـتم التعامـل معها والقبول بدور لها في غزة وفلسطين ومساعدات الإعمار، وقـد دخلـت تركيـا علـى الخط– وبقبول حماس– كوسيط إضافي موثوق، وضمانا لتنفيذ الالتزامات.

أثبت التفاعل ضد العدوان على قطاع غزة حضـور وفاعليـة الحركـة الإسـلامية في مختلف الدول العربية وعالميا وتعاظم تأثيرها لصالح القضية الفلسطينية، ومـن المتوقـع أن يتزايد هذا الاتجاه، ولعب الإعلام العربي– خاصة المرتبط بمحور الممانعة وأنصاره– دوراً كبيرا في توجيه الرأي العام العربي والإسلامي، وهناك اتجاه واضـح لزيـادة دور الإعـلام في الصراع العربي– الإسرائيلي كبديل لضعف دور القـوى السياسـية، وقـد سـاهم هـذا الإعلام في كشف صورة إسرائيل العدوانية أمام العالم، مما دعم الدعوات لمحاكمـة مجرمـي الحرب الإسرائيليين أمام محكمة الجنايات الدولية، في المقابل فإنها أظهرت عجـز الأنظمـة العربية عن استيعاب المتغيرات الديمقراطية والشعبية في مجتمعاتها، وسمحت ببعض المجال للقوى الشعبية لإظهار تأييدها للقضية الفلسطينية وللتنفيس عن مشاعرها.

القضايا السياسية الخلافية المرتبطة بالعدوان الإسرائيلي

أثناء العدوان العسكري على قطاع غزة، وبعضها قبله وبعده، كان ولا زال الصـراع السياسي على أشده تجاه قضايا خلافية لأطراف الصراع، ونلخصها بالآتي:

١) **قضية المعابر:** تصر حركة حماس على فتحهـا بشـكل كامـل، وتصـر إسـرائيل علـى التحكم بها وفق هواها، وتصر السلطة على السيطرة عليها ويدعمها في ذلك أمريكا

وأوروبا ومصر، وقد كشفت قضية فتح معبر رفح عجز العرب عن اتخاذ قرارات حاسمة لصالح القضية الفلسطينية ودعم صمود شعب غزة بعيدا عن الموقف الأمريكي، ولذلك فقد دفعت مصر ثمنا باهظا من سمعتها وهيبتها، وعرّضتها لضغوط شعبية هائلة على الصعيد الداخلي والخارجي، وتسعى مصر وأمريكا والغرب للضغط على حركة حماس لتوافق على تشكيل حكومة وفاق وطني ومصالحة مع السلطة لفتح المعابر والحدود بمشاركتهم.

٢) **قضية إعادة الإعمار:** تسعى إسرائيل لاستخدام تمرير المساعدات ولوازم الإعمار كسلاح سياسي لتحقيق ما فشل العدوان العسكري في تحقيقه، وأن يكون الإعمار شاغلا للفلسطينيين والعرب والمجتمع الدولي عن بذل الجهد المطلوب لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي، ويسعى كل أعداء وخصوم حركة حماس إلى أن تأتي المساعدات عن غير طريقها– ويفضل عن طريق السلطة– لإظهار أنها تأتي بالدمار وغيرها وأسلوب التسويات يأتي بالنعم.

٣) **الحوار والمصالحة الوطنية الفلسطينية:** ضغط محور الاعتدال– ومن ثم ساندة الأوروبيون وتابعهم الأمريكيون– على حركة حماس للجلوس على طاولة الحوار الوطني الفلسطيني وإنجاز مصلحة وطنية وتشكيل حكومة وفاق وطني ومن ثم التجهيز لانتخابات رئاسية وتشريعية فلسطينية متزامنة، ولم يكن موقفهم هذا هو موقفهم قبل العدوان العسكري على غزة حينما أرادوا استبعاد حركة حماس وعزلها والقضاء عليها، ولكن بعد نجاحها في الصمود والمقاومة خشي جميعهم على وجود وشرعية ومستقبل السلطة في رام الله شريكهم الضعيف في الضفة الغربية وعلى الساحة الفلسطينية، وبما أن إسرائيل لم تستطع القضاء على حماس فقد اتجه التفكير نحو مشاركة السلطة في إخراج حماس من القيادة السياسية للشعب الفلسطيني، ويبدو أن نتائج الانتخابات الإسرائيلية نحو اليمين فرضت مزيدا من الضغط على محور الاعتدال لينجز المصالحة الوطنية الفلسطينية، حيث أن موقفه الساعي للسلام مع إسرائيل يتعرض لصفعة وعقبات كبيرة قادمة.